الإسم واللقب: رشيد بلعيفة

الرتبة: أستاذ محاضر قسم أ

التخصص: النقد الأدبي المعاصر

الكلية: الآداب واللغات

الجامعة: عباس لغرور خنشلة الجزائر

الهاتف: 00213773701091

الإميل: belaifa.rachid@yahoo.fr

إلى السيد: رئيس اللجنة العلمية للمؤتمر

الدولي الرابع الأسلوبية وسؤال المنهج

من المرجعية النظرية إلى الممارسة النصية

المحور الأول: النظري

تحية طيبة و بعد ،

يطيب لي أن أتقدم إلى سعادتكم سيدي الدكتور الفاضل منسق اللجنة العلمية للمؤتمر بطلب المشاركة في فعالياته بمداخلة موسومة بـ : **الأسلوبية من التأثيل إلى إمكانيات التحليل.**

تتنزل هذه المداخلة ضمن المحور الأول وتتقاطع مع جزئية دقيقة في المحور الثالث، وهي تروم الوقوف بشيء من الأناة عند أهمية المقاربة الأسلوبية للخطاب بعد أن مكنت لنفسها من التطرق لمجمل المناحي المصطلحية لها، وهي إذ تحاول التأسيس للأسلوبيات من الناحية النظرية فهي في الوقت نفسه تقف عند نقاط التماس والتوازي بينها وبين مختلف العلوم اللغوية الأخرى كاللسانيات والبلاغة والنقد، لتزيح بعض اللبس والإلغاز الذي حكم على هذه العلاقة بأحكام قيمية ومعيارية تحاول الأسلوبية النأي بنفسها عنها.

وتقدم بالإضافة إلى ذلك مختلف اختيارات الناقد الأسلوبي للخطاب، مع تسجيل مجمل الإمكانيات البحثية التي يتغياها الباحث الأسلوبي في مقاربته لمختلف الخطابات، مع محاولتها الإجابة عن جملة من التساؤلات المعرفية والإجرائية التي صاغت توجهها النقدي من قبيل؛ هل استطاعت البحوث الأسلوبية المعاصرة تقديم نفسها كبديل إجرائي عن المقاربات العتيقة؟ وكيف تبوأت هذه المكانة في الدرس النقدي المعاصر؟ وماهي مجمل الاختيارات الممكنة للمقاربة الأسلوبية؟ إذا كانت الأسلوبيات المعاصرة تنشد البحث عن جماليات النص الأدبي فهل استطاعت أن تكون بديلا عن البلاغة ومقولاتها؟ ربما تشكل هذه التساؤلات وغيرها المحور العام الذي ستنبني عليه عناصر هذه المداخلة وهي تحاول الإجابة عنها وبسطها.

1-الأسلوبية / المصطلح.

لا شك أن الواجهة الخلفية لتأصيل المصطلح تقف على أرض متغيرة، تتبدى فيها مجاذب التأصيل لتفسح المجال واسعا لرؤى التحول واللاثبات، والمصطلح في ارتحاله وفي تبيئته– وإثر الهزات المعرفية المختلفة الناتجة عن تشبع المصطلح بميزات إيديولوجية أو ضرورات أدبية، أو حفريات على مستوى الخطاب- يأخذ دلالات أخرى تنضاف إلى ميزاته

المعجمية، لتصبح الدلالة تنوعا وإغناء يعثر فيها المصطلح على بعده الثالث، بعده التداولي كما يقول بيرس، الذي تندرج فيه مساحات تحقيق المصلحة لرؤية تعددية اللفظة والكلمة، فتتجلى مع كل ذلك ملامح الاتصال لبلوغ الفهم.

وعود على بدء، يأخذ مصطلح الأسلوبية هذا المسار الذي تنوعت فيه المفاهيم، فقد ظهر عند الغربيين في القرن التاسع عشر، وكان ظهوره مرتبطا إلى حد بعيد بالجهود اللغوية التي سادت ذلك القرن، إلى أن نظّر العلاّمة " دي سوسير" F.D.Saussure" لعلم اللغة الحديث، بدراسته العلاقة بين اللغة والكلام، وتحليله الرموز اللغوية، وكذا دراسة التركيب العام للنظام اللغوي، والتفرقة بين مناهج الدراسة الوصفية والتاريخية، ودون التوسع في فلسفة "سوسير" اللغوية نرى أن هذا الجهد الخارق كان متاحا لأكبر تلامذته، وهو " شارل بالي Charles Bally" الذي تأسست على يديه الأسلوبية كعلم، وعلى إثر ذلك يمكننا أن نعتبره واضع الأساس أو اللبنة الأولى لهذا العلم، فاللغة عنده تتكون من نظام لأدوات التعبير التي تتكفل بإبراز الجوانب الفكرية من الإنسان، وفي الوقت ذاته هي مسئولة عن نقل الإحساس والعاطفة. ويرى أغلب مؤرخي الأسلوبية أن شارل بالي أصل عام 1902 علم الأسلوب، وأسس قواعده النهائية باعتباره يدرس العناصر التعبيرية للغة المنظمة من وجهة نظر محتواها التعبيري والتأثيري. وقد نشر كتابه الآخر سنة 1906 " بحث في علم الأسلوب الفرنسي" ثم أتبعه بدراسات أخرى، أسس فيها أحد أهم الاتجاهات الأسلوبية الحديثة وهي الأسلوبية التعبيرية، وقد رأى " أن اللغة مجموعة من وسائل التعبير التي تتناوب مع الفكرة، أي الدلالات المضافة مع الفكرة، وأن علم الأسلوب يعنى بدراسة الوسائل التي يستخدمها المتكلم للتعبير عن أفكار معينة."[i]

وهي المرة الأولى التي تم فيها نقل الدرس الأسلوبي من الدرس البلاغي في الثقافة الغربية، بتأثير من اللسانيات منهجا وتفكيرا إلى ميدان مستقل، صار يعرف بميدان الدرس الأسلوبي أو الأسلوبية.[ii]

ومصطلح الأسلوبية يطلق عليه في الإنجليزية Stylistic وفي الفرنسية Stylistique والباحث في الأسلوب Stylisticien وكلمة Style تعني طريقة الكلام وهي مأخوذة من الكلمة اللاتينية Stylos بمعنى عود من الصلب كان يستخدم في الكتابة، وكانت تعني:

- دراسة الصلة بين الشكل والفكرة.
- الطريقة الفردية في الأسلوب.[iii]

يقول عبد السلام المسدي: " فمنذ 1902 كدنا نجزم مع شارل بالي أن علم الأسلوب قد تأسست قواعده النهائية مثلما أرسى أستاذه" ف.دي. سوسير F.D.Saussure " أصول اللسانيات الحديثة".[iv]فهي تستمد معاييرها من النظرية العلمية أو من العلم الذي تنتمي إليه

كفرع جزئي، لذلك نجد عملية البحث الأسلوبي، التي تعتمد على أسس النظرية الأسلوبية، تقوم مقابل " علم اللغة التطبيقي"، الأمر الذي يجعلها فرعا من فروع علم اللسان.[v]

وفي سنة 1960 يبارك "ستيفن أولمان Stefan Ullmann" استقرار الأسلوبية علما لسانيا نقديا، قائلا: " إن الأسلوبية اليوم، هي من أكثر أفنان اللسانيات صرامة، على ما يعتري غائيات هذا العلم الوليد ومناهجه ومصطلحاته من تردد، و لنا أن نتنبأ بما سيكون للبحوث الأسلوبية من فضل على النقد الأدبي واللسانيات معا."[vi]

أما "مايكل ريفاتير Michael Riffaterre"، فيرى أن الوقائع الأسلوبية لا يمكن ضبطها إلا داخل اللغة، و ينبغي من جهة أخرى أن يكون لهذه الوقائع طابع خاص، وإلا لا يمكن تميزها عن الوقائع اللسانية.[vii] لأن موضوع الدراسة الأسلوبية عنده هو النص في حد ذاته، فالنص يضمن نوعا من التواصل بين الكاتب والقارئ، ولأن الكاتب فاقد لوسائل التعبير غير اللغوية، كالإشارة مثلا، فإنه عليه استخدام ما يمتلك من صيغ وأساليب، بهدف التأثير في أكبر عدد من القرّاء، ومن جملة هذه الأساليب المبالغة والاستعارة والتقديم والتأخير.[viii]

الأسلوبية علم ألسني يعنى بدراسة مجال التصرف في حدود الواعد البنيوية لانتظام جهاز اللغة،[ix] كما أنها البحث عن الأسس الموضوعية لإرساء علم الأسلوب، وعلى هذا الأساس يستخدم " عبد السلام المسدي" مصطلح " الأسلوبية " مرة ويستخدم " علم الأسلوب" مرة أخرى، فالمصطلح عنده حامل لثنائية أصولية، فسواء كان انطلاقنا من الدال اللاتيني، وما تولد عنه في مختلف اللغات الأخرى، أو كان انطلاقنا من المصطلح الذي استقر ترجمة له بالعربية، وقفنا على دال مركب " أسلوب Style " و لاحقة " ية Ique"، فالأسلوب ذو مدلول إنساني، وبالتالي اللاحقة تختص بالبعد العلماني العقلي، لذلك فالأسلوبية في عرفه: " هي البحث عن الأسس الموضوعية لإرساء علم الأسلوب." [x]

إذا كانت الأسلوبية تتعامل مع اللغة على أساس أنها تخدم التعبير، وتبرزه في صور وأشكال مختلفة، فإنها لا تتعامل مع كل تعبير، بل مع نوع معين منه، وصل إلى درجة معينة من الأداء الأدبي.[xi]

وتأسيسا على ما تم فإننا نستطيع إجمال القول في تعريف الأسلوبية أو علم الأسلوب بأنه علم لغوي حديث يبحث في الوسائل اللغوية التي تكسب الخطاب الاعتيادي، أو الأدبي خصائصه التعبيرية، والشعرية، فتميزه من غيره وتتعدى مهمة تحديد الظاهرة إلى دراستها بمنهجية علمية لغوية وتعد الأسلوب ظاهرة لغوية، في الأساس، تدرسها ضمن نصوصها.[xii]

أما "رومان ياكبسون Roman Jakobson" فقد عرّف الأسلوبية بأنها" البحث عما يتميز به الكلام الفني عن بقية مستويات الخطاب أولا، وعن سائر الفنون الإنسانية ثانيا."[xiii]

من هنا يتضح، أن الأسلوبية تعنى بدراسة الخصائص اللغوية التي تنقل الكلام من مجرد وسيلة إبلاغ عادي، إلى أداء تأثير فني، وتعرّف عادة بأنها الدراسة العلمية للأسلوب. واهتم ياكبسون بالنص الأدبي باعتباره خطابا تغلب فيه الوظيفة الشعرية للكلام على باقي الوظائف التواصلية الأخرى، الأمر الذي نجم عنه التفريق بين دراسة الأدب بوصفه طاقة مكتنزة داخل اللغة، وبين دراسة الأسلوب الفعلي في حد ذاته.

2- الأسلوبية في علاقتها بالعلوم المجانسة لها:

بعد أن تم التعرف على مصطلح الأسلوبية الغربية، ثم كيفية نقله إلى مجالات التنظير والتطبيق في الدراسات العربية، وبعد أن عرف العلم بماهيته وما قعد له من مفاهيم خاصة لدى الغربيين، تأتي هذه المحاضرة لتتبع نقاط التمفصل والتواشج التي تربط الأسلوبية بشتى فروع المعرفة بدءً باللسانيات ثم باقي العلوم اللغوية الأخرى؛ كالبلاغة والنقد وغيرها.

2-1- الأسلوبية واللسانيات:

نلمس علاقة الأسلوبية باللسانيات في أن الأسلوبية هي الوجه الجمالي للسانيات، لأنها ترتبط بها ارتباط الناشئ بعلة نشوئه، " فإذا كانت لسانيات سوسير قد أنجبت أسلوبية "بالي Bally" ، فإن اللسانيات نفسها قد ولدت البنيوية التي احتكت بالنقد الأدبي، فأخصبا معا "شعرية"جاكبسون، و"إنشائية" تودوروف، و"أسلوبية" ريفاتير، ولئن اعتمدت كل هذه المدارس على رصيد لساني من المعارف، فإن الأسلوبية معها تبوأت منزلة المعرفة المختصة بذاتها أصولا ومناهج."[xiv]

ولتحديد مدى ارتباط الأسلوبية باللسانيات أو العكس، قام بعض المنظرين بوضع جملة من التقريرات تم بموجبها حصر الأبعاد الأصولية في علوم اللسان، "فوالاك وفاران" في هذا المقام مثلا يلحّان على الصلة العضوية بين الظاهرة الأدبية وحقول الدراسة اللسانية محددين هذه الصلة على أساس أن اللغة هي القاطع المشترك لدائرتين متداخلتين، فهي للسانيات موضوع العلم ذاته، وهي للأدب المادة الخام، شأنها شأن الحجارة للنحات و الألوان للرسام، والأصوات لواضع اللحن.[xv]

أما "ياكبسون" فيقتصر على إثبات أن الأسلوبية " فن من أفنان شجرة اللسانيات."[xvi]

إن الدراسة اللغوية قد اتخذت اللبوس العلمي والوصفي وابتعدت كليا عن الأحكام الجاهزة المعيارية والتصورات الانطباعية، حيث بدأ هذا مع اللساني "دي سوسير" الذي دعا إلى ضرورة دراسة الظواهر اللغوية دراسة علمية، وصفية بعيدة عن الأحكام القطعية الجاهزة، من هنا كانت اللسانيات الحديثة تتعامل مع اللغة من خلال النصوص، وكانت على إثرها الأسلوبية أحد أهم هذه المناهج وأخصبها، وذلك لقربها الكبير من الدراسات اللغوية.

أما "جون ستاروبنسكيJean Starobinsky" فحاول مقاربة المشكلة انطلاقا من التسليم بشمولية اللسانيات و إشعاعها على كل العلوم الإنسانية، وتأكيدا على أنها علم " يقفو أثر الحيوان الناطق، ولا يكون حيوان ناطق إلا وهو حيوان مفكر، منصت كاتب ذو خيال وذو أحلام."[xvii]

من خلال ما تقدم فقد خالف ستاروبنسكي الباحثين في إثباتهم سلطان اللسانيات على الأسلوبية، وفي هذا إثبات لاستقلال الأسلوبية على اللسانيات استقلالا ذاتيا. لكننا نلمس خيطا رفيعا يفصل الأسلوبية عن اللسانيات، ذلك أن الأسلوبية أخذت من الدرس اللغوي صفة العلمية والوصفية في الدراسة اللغوية، غير أنها اهتمت بالخطاب ككل دون أن تهمل ما قد يتركه هذا الخطاب من أثر في نفسية المتلقي، في حين نجد اللسانيات قد ركزت على دراسة الجملة، وبنياتها لاستنباط القواعد، مع السعي إلى تنظير القوانين التي تعطي هذه الدراسة صفة العلمية والوصفية، " إن الأسلوبية وصف للنص الأدبي حسب طرائق مستقاة من اللسانيات."[xviii] ويقول " دولاس" " إن الأسلوبية تعّرف بأنها منهج لساني".[xix] أما "ريفاتير" فينتهي إلى اعتبار أن الأسلوبية لسانيات تعنى بظاهرة حمل الذهن على فهم معين وإدراك مخصوص. ويرى بأنها " ....علم يهدف إلى الكشف عن العناصر المميزة التي يستطيع الباث مراقبة حرية الإدراك لدى القارئ المستقبل وجهة نظره."[xx]

زودت اللسانيات المنهج الأسلوبي بطابع العلمية الوصفية في دراسة النصوص من خلال لغتها وبذلك جعلت منه منهجا علميا وصفيا ينأى عن الدراسة المعيارية الحكمية، التي وقعت فيها البلاغة مما ولّد عقمها وجمودها.

2-2 الأسلوبية والنقد:

لا يخفى على أي دارس معاصر للتراث اللغوي والأدبي، أن معظم الدراسات النقدية نحت منحى وصفيا علميا وذلك بتأثير الطروحات اللسانية التي أتى بها سوسير مع بداية القرن العشرين، ومناداته بالدراسة التزامنية للغة، وفق مبدأ المحايثة الذي أقره سوسير لفهم أكثر للنص الإبداعي، ومع ظهور البنيوية كمنهج من مناهج تحليل الخطابات ودعوتها إلى دراسة النص الأدبي من الداخل وإقصائها لجميع السياقات اللغوية الخارجة عنه أثناء عملية التحليل، وجدت جل المناهج النقدية المعاصرة نفسها ملزمة بتقصي ما ذهبت إليه البنيوية في طروحاتها النقدية.

ولقد انفرد النقد بالسلطان الأول في مجال الأدبيات دون أن يقول كثيرا على اللغويات وذلك منذ أن انحصرت البلاغة داخل الشروح و التلخيصات، فلم يكن هناك اتصال حقيقي بين الأدب ولغته، كما أنه استمد مقوماته من مجالات أخرى في علم النفس وعلم الاجتماع وتراجم الأعلام، يؤكد العديد من الباحثين، على أن النقد الحديث قد استحال إلى نقد الأسلوب وصار فرعا من فروع علم الأسلوب، ومهمته أن يمد العلم بتعريفات جديدة ومعايير جديدة،

لأن الأسلوبية هي التي تعطي العمل الأدبي تفرده بطرائقها المتجددة، وأدواتها البارعة في استخراج كنوز الآثار الأدبية عن طريق اللغة دون تجاهل الموضوعية التي تقوم عليها.[xxi]

وعلى الناقد النظر في العمل الإبداعي على أنه بناء لغوي يستغل أكبر قدر من إمكانات اللغة بمستوياتها الصوتية والدلالية لتجسيد المشاعر والأفكار وفق صورة ملموسة لها خصوصياتها وتفردها، وهذه الخصوصية كما يقول "فلوبير" هي طريقة الكاتب في رؤية الأشياء.[xxii] وإذا كان الإبداع يتمثل في الأسلوب فإن النقد يتمثل بحق في المعرفة، عن طريق فحص هذا الأسلوب وتبين ما فيه من خصائص، ومهمة الناقد الأسلوبي تتحول لتصبح جسرا رابطا بين الأسلوب والمتلقي، فتقربه أكثر من نفسه، وذلك من خلال منهج معين يحدد له خطوط مهمته حتى لا يظل في متاهات التفاسير التي تبتعد عن الصياغة، وهي تفاسير تتيح للناقد أن يقدم فهما خاصا له، كما تكمن مهمة الناقد أيضا في الوصول إلى حكم تقييمي بالحسن أو القبح.[xxiii] والكشف عن قيمها الجمالية بدءً بالجزء وصولا إلى الكل، وقد تجسد هذا المنهج النقدي الأسلوبي بشكل واضح في دراسة " ليو سبيتزر" "لسيرفانتس" و"فيدر" ... وغيرهما، وربما كان هذا المنهج الذي قدمه سبيتزر هو ما يمكن اعتباره مدرسة حقيقية في النقد الأسلوبي.

لقد أتاحت المحاورات والمبادلات بين النقد والأسلوبية قدرا من الحرية لتحرك النقد الأسلوبي في مساحة واسعة لإبراز الرباط الوثيق بين الصياغة وعناصر الجمال دون الإغراق في وضعية اللغة التي تفضي بدورها إلى الوقوع في حوق الصنعة بمواجهته بنماذج أعلى تجمد حركته، وتوقف نموه وهي نماذج افتراضية تدخلنا إلى ميتافيزيقيات لا يفيد منها الأثر الأدبي في قليل أو كثير.[xxiv]

ولم تكن الأسلوبية في درسها بعيدة عن تلك المناهج النقدية التي تعتمد اعتمادا مطلقا على الجانب اللغوي، إذ نجدها تقارب مختلف النصوص الأدبية وتقصر درسها وتحصره كذلك في الجانب اللغوي خاصة يقول الباحث " أحمد درويش": ... ومن هنا فإن الجانب اللغوي هو مجال البحث الأسلوبي، أما ما يتصل بالأثر الجمالي، أو تحليل عمل الشاعر، أو الروائي أو المسرحي، وجدانيا وجماليا، أو موقفا أو سواه؛ فكل ذلك يكون مهمة الناقد الأدبي بعد ذلك."[xxv]

وإذا كان هذا من مهام النقد في ممارسته وتأملاته للإبداع في شتى مشاربه واتجاهاته، فقد غدت الأسلوبية اتجاها من اتجاهات الدرس النقدي الأدبي، إن لم تكن جزءً لا يتجزأ منه، نظرا للتماثل الكبير بين الأسلوبي والناقد، إلا أن التباين يكمن في أن لكل أدواته الإجرائية ورؤيته المستقلة، التي يسعى من خلالها إلى مقاربة النص الإبداعي للوصول إلى أسراره وأعماقه، غير أن الناقد في هذه الحالة قد يكون أكثر منهجية إذا التزم منهجا نقديا محددا، وذلك بعد دراسته واستيعابه، ثم تأتي مرحلة استخلاص الأدوات التي تساعده على مقاربة

النص الأدبي في إطار علمي ممنهج، على عكس الناقد الأسلوبي الذي لا يستقر على منهج وآليات محددة يقارب بها النصوص الإبداعية.

3-2 الأسلوبية والبلاغة:

إنّ المتتبع لمجرى الدراسات اللغوية العربية القديمة، يلحظ جليا تقدمها وسبقها على مجمل الدراسات البلاغية، لذلك كانت هذه الدراسات محرضا له وشاهدا عليه في الوقت نفسه، وانطلاقا من هذا صار الدرس البلاغي القديم فرعا وجزءً مهما من الدرس اللغوي العام، وكان نتيجة ذلك أثره البالغ في تطور الدراسات اللغوية والبلاغية على حد سواء.

وعلى العكس مما تقدم كان الدرس البلاغي الغربي سابقا ومتقدما على غيره من الدراسات اللغوية وشاهدا عليها، وكان لهذا لأمر أثره في دراسة (موضوع البلاغة) وفي دراسة اللغة والتنظير لها، على حد سواء، واعتبارا لذلك فقد عدّ الدرس اللغوي وإلى زمن طويل جزءً من الدرس البلاغي.[xxvi]

لقد كانت الدراسات البلاغية القديمة قائمة على البحث غير الموضوعي، ذلك أنها اعتنت بتحليل الخطاب ومدارسته لكن بدراسات نزعت إلى المعيارية والحكمية المسبقة، متبعة في ذلك مبدأ الخطأ والصواب، وهي في أثناء ذلك أولت الاهتمام الكبير للشكل على حساب المضمون، الأمر الذي يجعل من أحكامها تقييمية آلية، مستنسخة، وهي في أثناء ذلك تحجر المعنى وتقصره على وجهة نظر مخصوصة، مما يجعل النص الأدبي لا يبوح بكامل مكنوناته وأسراره، " فالحصيلة الأصولية في مقارنة البلاغة بالأسلوبية تتلخص في أن منحى البلاغة متعال، بينما تتجه الأسلوبية اتجاها اختباريا، معنى ذلك أن المحرك للتفكير البلاغي قديم يتسم بتصور " **ماهي**" بموجبه تسبق ماهيات الأشياء وجودها."[xxvii]

لكن مع بروز نجم الدراسات اللسانية الحديثة التي بشّر بها سوسير، حدثت هزة معرفية على مستوى قواعد الدراسة البلاغية، ومسلماتها الجائرة، هذا النوع من الدراسة الذي دعا من خلاله رائده، إلى تأصيل المنهج الدراسي البحثي للغة، معتمدا على الدراسة العلمية الوصفية والتزامنية للغة، وفي الوقت ذاته بعيدا عن الأحكام الجامحة المسبقة، فالدراسة الأسلوبية إذا تهتم بالتصور الوجودي، الذي بمقتضاه لا تتحدد للأشياء ماهياتها إلا من خلال وجودها، لذلك اعتبرت الأسلوبية أن الأثر. [xxviii] الفني معبر عن تجربة معيشة فرديا.

لم يخرج أحد من الدارسين العرب المحدثين، على اعتبار العلاقة الوطيدة التي تربط الأسلوبية بالبلاغة، وعدها الوريث الشرعي لها[xxix]، والامتداد الطبيعي لتلك. يقول المسدي: " إذا تبنينا مسلمات الباحثين والمنظرين وجدناها تقرر أن الأسلوبية وليدة البلاغة ووريثها الشرعي."[xxx] غير أن عملية الجمع بينهما لا يمكن أن تستقيم إذا تقصينا ميدان اهتمام كل منهما، ذلك أن ما يفرق بين العلمين أكثر مما يجمع بينهما، لذلك فقد أدرك المسدي هذه العلاقة الإشكالية بين العلمين وصاغها وفق هذا المبدأ قائلا: " الألسنية امتداد للبلاغة ونفي

لها في نفس الوقت هي لها بمثابة حبل التواصل وخط القطيعة في نفس الوقت."[xxxi] وقد عدّ "بيير جيرو" "الأسلوبية بلاغة حديثة ذات شكل مضاعف: إنها علم التعبير وهي نقد للأساليب الفردية".[xxxii] بل ذهب بعض الباحثين العرب إلى اعتبار الأسلوبية علما جديدا نسبيا وقد " حاولت تجنب اقتصارها على الدراسة الجزئية، يتناول اللفظة المفردة، ثم الصعود إلى الجملة الواحدة، أو ما هو في حكم الجملة، وهذه الدراسة البلاغية كانت يوما أداة نقد في تقييم الأعمال الأدبية."[xxxiii] ويمكن رصد تلك العلاقة الوطيدة التي تربط العلمين إلى حد أن الأسلوبية تتقلص في مباحثها حتى لا تعدو أن تكون جزءً من نموذج التواصل البلاغي، وتنفصل أحيانا عن هذا النموذج وتتسع حتى تكاد تمثل البلاغة كلها، بوصفها بلاغة مختزلة.[xxxiv] غير أننا سنرصد أهم الفروق الجوهرية التي تفصل البلاغة عن الأسلوبية مع معرفتنا بأهم تمفصل يربط بينهما وهو موضوع العلم في حد ذاته ؛ الخطاب الأدبي، وسنعتمد أهم الفروق التي تقصاها الباحث "نور الدين السد" وفق الجدول الآتي:

علم البلاغة	الأسلوبية
• البلاغة علم معياري. • يرسم الأحكام التقييمية. • يرمي إلى تعليم مادته وموضوعه، أي أن غرضه تعليمي. • يحكم على الخطاب الأدبي بمقتضى أنماط مسبقة؛ أي أن وجودها سابق على الأثر. • يقوم على تصنيفات جاهزة. • يرمي إلى خلق الإبداع بوصايا تقييمية. • يفصل الشكل عن المضمون. • يعد الإنزياحات مثلا، وغيرها من الظواهر عوامل مستقلة تعمل لحسابها الخاص. • تهتم بفصاحة الألفاظ وانسجام الأصوات في تركيب اللفظ، وتقول بهجر الألفاظ غير الفصيحة، والمركبة من أصوات متقاربة في المخارج والصفات. • يطلق الأحكام القيمية على أجزاء من الخطاب.	• علم وصفي ينفي عن نفسه المعيارية. • لا تطلق الأحكام التقييمية. • لا يسعى إلى غاية تعليمية. • تحدد بقيود منهج العلوم الوضعية؛ أي أن وجودها يلي الأثر. • تسعى إلى تعليل الظاهرة الإبداعية بعد أن يتقرر وجودها. • لا تقدم وصايا لكيفية الإبداع الأدبي. • لا تفصل بين الشكل والمضمون. • تعد الإنزياحات عوامل غير مستقلة، وتعمل في علاقة جدلية لحساب الخطاب كله. • تدرس الألفاظ والتراكيب الفصيحة وغير الفصيحة في الخطاب، وتحللها وتحدد وظائفها ولا تقول بهجر أي عنصر من عناصر الخطاب. • لا تطلق أحكاما قيمية على أجزاء من الخطاب، أو الخطاب كله.

• يشير إلى العناصر البلاغية المكونة للخطاب دون البحث فيما تفضي إليه من بناء وتناسق في شكل الخطاب ودلالته. • لا يحدد الفروق بين الأجناس الأدبية، وهي هنا تتفق مع الأسلوبية التعبيرية لبالي.	• تشير إلى مكونات الخطاب جميعها وتبحث فيما يفضي إليه بناءً وتناسقا وانسجاما، شكلا ومضمونا. • تحدد الفروق الأسلوبية بين الأجناس الأدبية.
• تبحث في قوانين الخطاب الأدبي فقط. • لا يحدد السمات المهيمنة على الخطاب الأدبي.	• تبحث في قوانين الخطاب الأدبي ومكوناته البنيوية والوظيفية. • تحدد السمات المهيمنة على الخطاب، وتهتم بالسمات الأدبية.
• يعتمد مقاييس شكلية، ولذلك لا يدرس الخطاب الأدبي في شموله.	• مقاييس الأسلوبية شمولية في تحليل الدوال والمدلولات، ولذلك تفرق بين ما هو أدبي وما هو غير أدبي، وتبحث في كيفية تشكيل الخطاب.
• يدرس الخطاب الأدبي دراسة جزئية.	• تدرس الخطاب الأدبي دراسة شمولية من حيث الظاهر والباطن.

ربما يمثل الجدول السابق أهم الفروق الجوهرية بين علم البلاغة والأسلوبية، لكن تبقى بعض القضايا الهامشية التي يمكن للأسلوبية أن تشترك فيها مع البلاغة، وخاصة إذا تناولت الأسلوبية بالتحليل بعض القضايا البلاغية في الخطاب الأدبي، والتي تشكل علامات أو سمات أسلوبية فيه.

3- التحليل الأسلوبي للخطاب:

تكاد تتفق كافة الاتجاهات الأسلوبية المعاصرة على أنّ المدخل إلى أية دراسة أسلوبية ينبغي أن يكون لغويا، على اعتبار أن الأسلوبية " تعني دراسة الخطاب الأدبي من منطلق لغوي."[xxxv] لذلك فهي تعتمد على علم اللغة بطريقة أو بأخرى، ولأن الأسلوب لا يمكن تحديده بوضوح دون الرجوع إلى النحو، إذن فالاعتماد على المعيار النحوي في الدراسة الأسلوبية ضروري حتى يستطيع الباحث الأسلوبي الحكم على مدى انحراف المبدع عن النمط المألوف، فليس ثمة أسلوب دون نحو.

ويعد النحو عاملا أساسيا في التحليل الأسلوبي، فبينهما تناسب طردي من حيث تمكن الباحث من العلم بالنحو وقواعده يزيد من عمق التحليل الأسلوبي وثرائه، وعلى الباحث

الأسلوبي أثناء تحليلاته أن يميز بين ما يسمى البنية النحوية وما يسمى النموذج النحوي، فالبنية النحوية هي الكيفية المميزة لترتيب الألفاظ في الجملة، فالنبر والتنغيم والنهايات، كلها تشكل الإطار العام لها، أما النموذج النحوي فيشير إلى عملية ترتيب الألفاظ في إطار معين بحيث إذا استبدلت كلمة بأخرى لا يتغير معنى الترتيب، لأن تغيير الألفاظ أو استبدالها بغيرها في النموذج النحوي يتبعه تغير في المعنى العام لا في معنى الترتيب.[xxxvi]

ويتمحور اهتمام الباحث الأسلوبي حول بحث المستويات المنزاحة / المنحرفة، عن المستوى المثالي للغة النموذج، فهناك ملامح لغوية في أي نص لا تتجاوز حدود وظيفتها الإيصالية.[xxxvii]لذلك فالباحث الأسلوبي يرغب في أن يسقط من وصفه أثناء العملية التحليلية، كثيرا من الملامح والسمات التي وصفها الباحث اللغوي، وذلك بطريقة مناسبة وملائمة، وأثناء ذلك يذكر ملامح أخرى لم تتجه عناية الباحث اللغوي لها ولم يعرها أي اهتمام.

انطلاقا من هذا تبدو أهمية الدراسة الأسلوبية، فعلى الرغم من ارتكازها على لغة النص، إلا أنها تتجاوز حدود الوصف اللغوي لهذا النص، وتعنى بما جعله علم اللغة خارجا من دائرة اهتمامه، وذلك بما أهمله من سمات لغوية سواء على مستوى الفونيمات أو المورفيمات، أي من حيث صوتيات اللغة ومجالها التركيبي.[xxxviii]

ومن جملة اهتمامات الباحث الأسلوبي، تتبع مجمل الخصائص الأسلوبية والسمات البارزة قصد تفكيكها وربط أجزائها ببعض، من أجل الوقوف عند الخاصية الجمالية والفنية التي تميز قطعة إبداعية عن أخرى، وفي ذات الوقت تستقصي مجمل الظواهر الأسلوبية الأخرى بغية الإجابة عن مختلف التساؤلات المعرفية التي تطرحها دوما من قبيل لماذا تمت عملية الاختيار بهذه الطريقة؟ إلى غيرها من التساؤلات التي تثيرها الدراسة الأسلوبية أثناء تحليل الخطابات. فقد تحولت " الدراسة الأسلوبية من مجرد كشوفات عن مظاهر شكلية ذات محاور متعددة، تتصل بالبنى الأسلوبية المختلفة التي تتموضع في النص الشعري، وعن كونها عبارة عن جداول إحصائية منفردة ترصد عدد الانزياحات ومجالاتها، وعدد النظم التكرارية ومجالاتها في النص، إلا أن الدراسة الراهنة تلاحق الخصائص المتميزة عبر فحص البنى الأسلوبية البارزة في النص، محاولة اكتشافها بوصفها بنى أسلوبية مهيمنة من خلال الاستقراء والتحليل، مدعمة هذا الاستقراء وذلك التحليل بوجهات نظر متعددة تتواشج لتفضي إلى مجموعة من الإجراءات المنهجية المستمدة والمعدلة وفق نظرة تفي بمتطلبات التحليل الأسلوبي."[xxxix]

4- أهمية التحليل الأسلوبي:

تكشف الأسلوبية – من خلال تحليل البنى اللسانية- عن البنيات المتميزة التي تجعل من الخطاب الأدبي جملة من الاختيارات العدولية التي ينفرد بها مبدع عن آخر. حيث تتحدد لبنيات الأسلوبية " لنص ما بتوالي العناصر المرسومة في مقابل غير المرسومة، في مجموعات ثنائية تمثل السياق والإجراء المضاد له الذي لا ينفصل عنه، إذ لا يمكن أن يقوم أحدهما مستقلا عن الآخر، فكل واقعة أسلوبية تشمل بالضرورة سياقا وتضادا، ومن هنا لا يمكن التركيز فقط على العناصر المعتادة ببساطة، لأنها عناصر بارزة سهلة الالتقاط في التحليل الأسلوبي، بل لابد أن نولي نفس الاهتمام للعناصر غير المرسومة في مقابلها."[xl]

تبدو أهمية التحليل الأسلوبي في أنه يتجه إلى رصد ملامح التضاد والتناسب، التي أدى إليها اختيار المبدع، ويمكن التعرف من خلال عمليات المقارنة التي يقوم بها القارئ على المقابلات والوحدات اللافتة للنظر، وإن كانت تتم على مستوى جزئي يختلف عن المستوى الذي تتم فيه بحوث المحلل الأسلوبي، فالخاصية الأسلوبية تتجسد فيها نتائج المقارنة، فإذا تكررت هذه الدلالات عند مجموعة من القراء في إعادة تكوينهم للنص، فإن الاحتمال الغالب أن تكون تلك العناصر مقصودة بوعي من المبدع.[xli]

يسهم التحليل الأسلوبي في إظهار رؤى المبدع وأفكاره، ويبين ما وراء الألفاظ والسياق من مغزى ومعاني ينطوي عليها النص، كما يبرز أيضا القيم الجمالية والبلاغية فيه، وليس من مهام الباحث الأسلوبي إصدار الأحكام القيمية بالاستحسان أو عدمه، فهذا ما ينأى عنه الباحث الأسلوبي الذي ينشد الموضوعية والعلمية الوصفية. "وتتجلى أهمية التحليل الأسلوبي في أنه يكشف المدلولات الجمالية في النص، وذلك عن طريق النفاذ في مضمونه وتجزئة عناصره، والتحليل بهذا يمكن أن يمهد الطريق للناقد ويمده بمعايير موضوعية يستطيع على أساسها ممارسة عمله النقدي وترشيد أحكامه، ومن ثم قيامها على أسس منضبطة."[xlii]

نخلص مما سبق إلى أن التحليل الأسلوبي أحد أجدى المناهج النقدية المعاصرة في تحليل الخطاب الشعري والسردي على السواء، إلا أن ذلك لا يعني أننا ندعي أنه يحل محل النقد الأدبي، وإنما يعد إحدى الوسائل المتاحة له ليعمل بطريقة أكثر موضوعية، فاللغة هي إحدى الوسائل التي يرتكز عليها المحلل الأسلوبي، حين يعرض لنص ما بالدراسة النقدية.

5- كيفيات التحليل الأسلوبي:

يرتكز المحلل الأسلوبي أثناء مقاربته للنص الإبداعي،على جملة من الآليات والإجراءات التي تتيحها المقاربة الأسلوبية للخطاب، وهي في حقيقة أمرها آليات لغوية امتاحتها الأسلوبية من معين الدراسات اللغوية، لكن مع إضافات منهجية دفعت بها إلى تخطي المقاربة حواجز التحليل اللغوي المحدود، لأن الأسلوب يتحقق بانتظام المستويات المختلفة، التي يحيل عليها التحليل الأسلوبي، من خلال التفكيك ثم التوافق بين المستويات؛ الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية، وبهذا تكون الأسلوبية جملة من المناهج وليست منهجا واحدا على حد تعبير الدكتور سعد مصلوح، بمعنى أن الأسلوبية مجموعة من

الإجراءات الأدائية تمارس بها مجموعة من العمليات التحليلية التي ترمي إلى دراسة البنى الأسلوبية في النص وعلاقات بعضها بالبعض الآخر، بهدف إدراك الطابع المتميز للغة النص المراد دراسته، ومعرفة القيمة الجمالية والفنية التي تتستر وراء تلك البنى.[xliii]

لا يمكن للمحلل الأسلوبي أن يشرع في عمله، دون الاستناد على علم النحو بكل تفريعاته؛ الأصوات، الصرف، التراكيب، المعجم إضافة إلى الدلالة، "فهذه التقسيمات الأساسية التي يرتكز عليها البحث الأسلوبي، انطلاقا من الصيغ النحوية التي هي أساس الأسلوب، ويتم ذلك عن طريق فحص العناصر النحوية للعبارات المختارة، وتفسيرها بوصفها إشارات لمقاصد المؤلف، أو بمعنى أدق للمغزى الأعمق لما يكتبه، كما لا يتصور وجود أسلوب دون نحو، كذلك لا يمكن قيام البحث الأسلوبي إلا على أساس تحليل البنى النحوية ووظيفتها الإبلاغية."[xliv]

لعل من أبرز الخطوات التي يتكئ عليها المحلل الأسلوبي، مجموعة من الخطوات التي ينبغي عليه المرور منها، إذا أراد أن يضمن لتحليه نوعا من الدقة والصرامة المنهجية، وهي على التوالي:

- **الخطوة الأولى:** اقتناع الباحث الأسلوبي بأن لنص جدير بالتحليل، وهذا ينشأ من قيام علاقة قبلية بين النص والناقد الأسلوبي قائمة على القبول والاستحسان، وهذه العلاقة تنتهي حين يبدأ التحليل، حتى لا تكون هناك أحكام مسبقة واتفاقات تؤدي إلى انتفاء الموضوعية وهي السمة المميزة للتحليل الأسلوبي.
- **الخطوة الثانية:** ملاحظة التجاوزات النصية وتسجيلها بهدف الوقوف على مدى شيوع الظاهرة الأسلوبية أو ندرتها، ويكون ذلك بتجزيء النص إلى عناصر، ثم تفكيك هذه العناصر إلى جزئيات وتحليلها لغويا، على أن ذيوع الخاصية وتواترها بشكل لافت يحولها من حالة الانتهاك إلى ما يشبه التعامل العادي مع اللغة، فالتحليل الأسلوبي يقوم على مراقبة مثل هذه الانحرافات، كتكرار صوت، أو قلب نظام الكلمات، أو بناء تسلسلات متشابكة من الجمل، وكل ذلك مما يخدم وظيفة جمالية كالتأكيد أو الوضوح أو عكس ذلك كالغموض أو الطمس المبرر جماليا. والباحث الأسلوبي قد يقوم في تحليله على المنهج الإحصائي، وهو من مقتضيات البحث العلمي، تحقيقا للحياد والدقة والنتائج الموضوعية.[xlv]

الخطوة الثالثة: هذه الخطوة لازمة لسابقتها، وتتمثل في الوصول إلى تحديد السمات والخصائص التي يتسم بها أسلوب الكاتب من خلال النص المنقود، ويتم ذلك بتجميع السمات الجزئية التي نتجت عن التحليل السابق، واستخلاص النتائج العامة منها، فهذه العملية هي بمثابة تجميع بعد تفكيك ووصول إلى الكليات انطلاقا من الجزئيات، وهذا يمكّننا من الوقوف على الثوابت والمتغيرات في اللغة، ووصف جماليات الأثر الأدبي.[xlvi]

وتبنى عملية التحليل الأسلوبي للخطاب، على تفكيك النص الإبداعي إلى وحدات صغيرة قد تصل إلى اللفظ المفرد أو الصوت الواحد، ودراستها منفصلة عن العمل الأدبي، ثم تجميعها مرة أخرى وبحثها في إطار الأثر الذي يحتويها،[xlvii] وعلى المحلل الأسلوبي أن ينتبه إلى أنه قد يراكم ملاحظات منفصلة، وعينات من سمات معلومة ثم ينسى أن العمل الفني كل متكامل، أي لا ينبغي الفصل بين الشكل والمضمون، أما إذا قام الباحث بفصل هذين المكونين، فهذا من شأنه أن يؤدي إلى أحكام تجديفية غير دقيقة وإلى نتائج مشوهة ومتعسفة.

الإحالات:

---

[i] محمد كريم الكواز: علم الأسلوب- مفاهيم وتطبيقات-، منشورات جامعة السابع من أبريل، ليبيا، ط1، دت، ص: 66.

[ii] عبد المنعم خفاجي: الأسلوبية والبيان العربي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط2، 1999، ص: 14.

[iii] ينظر: محمد عبد المطلب: البلاغة والأسلوبية، مكتبة لبنان ناشرون،بيروت، ط1، 1994، ص: 172، وينظر أيضا: أحمد درويش: الأسلوب والأسلوبية- مدخل في المصطلح وحقول البحث ومناهجه- مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984، مج 5،ع 1-2، ص: 60-61.

[iv] عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب، ص: 20.

[v] ينظر: فرحان بدري الحربي: الأسلوبية في النقد العربي الحديث، نجد للنشر،بيروت،ط1، 2003، ص: 26.

[vi] عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب، ص: 24.

[vii] ينظر مايكل ريفاتير: معايير التحليل الأسلوبي، تر: حميد لحميداني، دراسات سال، دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1993، ص: 17.

[viii] ينظر: يوسف أبو العدوس: الأسلوبية – الرؤية والتطبيق- دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2007، ص: 140.

[ix] ينظر فرحان بدري الحربي: الأسلوبية في النقد العربي الحديث، ص: 27.

[x] عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب، ص: 33.

[xi] ينظر: أحمد درويش: الأسلوب والأسلوبية، مجلة فصول، ص: 61.

[xii] عدنان بن ذريل:الأسلوبية، مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي،بيروت،1982، ع 25، ص: 249.

[xiii]أحمد درويش: الأسلوب والأسلوبية، مجلة فصول، ص: 66.

[xiv] عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب، ص: 05.

[xv]نفسه، ص: 46.

[xvi]نفسه، ص: 47.

[xvii]نفسه، ص: 47.

[xviii]نفسه، ص: 51.

[xix]نفسه، ص: 51.

[xx]نفسه، ص: 52.

[xxi] ينظر: محمد عبد المطلب: البلاغة والأسلوبية، ص: 319.

[xxii] ينظر نفسه: ص: 321.

[xxiii] ينظر نفسه، ص: 321.

[xxiv] ينظر نفسه، ص: 321.

[xxv] أحمد درويش: الأسلوب معاصرة وتراث، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1993، ص: 33.

[xxvi] ينظر، محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، الشركة العالمية المصرية للنشر- لونجمان-، ط1، 1994، ص: 318.

[xxvii] عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب، ص: 48.

[xxviii] لايفهم من هذا المصطلح – الأثر – ما عناه دريدا في استراتيجية التفكيك ، ولا ما عناه رولان بارث على اعتبار أنه الوجود المادي الذي يحتاج إلى حيز في المكتبة، وإنما أقصد به ما عناه أمبرتو إيكو باعتبار الأثر عنده هو النص كذلك. لمزيد من التوضيح حول الفرق بين النص والخطاب والأثر ، ينظر: عبد الله إبراهيم: الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، الفصل الخاص بمصطلح النص والخطاب، وينظر كذلك: عبد الواسع الحميري: الخطاب والنص،- المفهوم – العلاقة- السلطة-، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2008، الباب الأول والباب الثاني. وينظر أيضا: رولان بارث: درس السيميولوجيا: تر: عبد السلام بنعبد العالي، ص: 60.

[xxix] ينظر: عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب، ص: 48.

[xxx] نفسه، ص: 48.

[xxxi] نفسه، ص: 48.

[xxxii] بيار جيرو: الأسلوبية، ص: 09.

[xxxiii] محمد عبد المطلب: البلاغة والأسلوبية، ص: 268.

[xxxiv] ينظر: فرحان بدري الحربي: الأسلوبية في النقد العربي الحديث، ص: 29.

[xxxv] عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب، ص: 45

[xxxvi] ينظر فتح الله أحمد سليمان: الأسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية، ص: 44-45.

[xxxvii] ينظر يوسف أبو العدوس: الأسلوبية الرؤية والتطبيق، ص: 47.

[xxxviii] ينظر نفسه: ص: 47-48.

[xxxix] حسن ناظم: البنى الأسلوبية، دراسة في أنشودة المطر للسياب، المركز الثقافي العربي، بيروت- الدار البيضاء، ط1، ص: 35.

[xl] يوسف أبو العدوس: الأسلوبية الرؤية والتطبيق، ص: 145.

[xli] ينظر نفسه، ص، 145.

[xlii] فتح الله أحمد سليمان: الأسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية، ص: 53.

[xliii] ينظر نفسه، ص: 43.

[xliv] نفسه: ص: 54.

[xlv] ينظر نفسه، ص: 54-55.

[xlvi] نفسه، ص: 54-55.

[xlvii] ينظر نفسه، ص: 55-56.